اللّهم اكفناه بما شئت

عن سُراقة بن مالك بن جُعشم رضي الله عنه ـ فذكر الحديث ـ وفيه جَعْلُ قريشٍ ديةً لمن يأتي بالنبيّ ﷺ وصاحبه ، إلى أن قال :

فبينما أنا جالسٌ في مجلسٍ من مجالس قومي بني مُدلج أقبل رجلٌ منهم ، حتى قام علينا ونحن جلوسٌ ، فقال: يا سراقة ، إني قد رأيتُ آنفاً أُسودةً بالسّاحل أراها محمداً وأصحابه! .

قال سراقة: فعرفتُ أنهم هم ، فقلتُ له: إنهم ليسوا بهم ، ولكنّك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا ، ثم لبثتُ في المجلس ساعة ، ثم قمتُ فدخلتُ فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وهي من وراء أكمةٍ فتحبسها عليّ وأخذت رمحي فخرجتُ به من ظهر البيت ، فخطّطتُ بزُجّه[1] الأرض ، وخفضتُ عاليه ، حتى أتيتُ فرسي فركبتها فرفعتها تقرب[2] بي حتى دنوتُ منهم ، فعثرت بي فرسي فخررتُ عنها ، فقمتُ فأهويتُ يدي إلى كنانتي فاستخرجتُ منها الأزلام ، تُقرّبُ بي حتى إذا سمعتُ قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفتُ ، وأبو بكر يُكثر الالتفات، ساختْ[3] يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخررتُ عنها ثم زجرتها ، فنهضت فلم تكد تُخرج يديها ، فلما استوت قائمةً إذا لأثر يديها عُثان[4] ساطعٌ في السماء مثل الدخان ، فاستقسمتُ بالأزلام

---

(١) أي: الحديدة التي تُركز به الرمح في الأرض.

(٢) قرّب تقريباً: إذا عدا عدْواً نحو الإسراع.

(٣) أي: رسَخت.

(٤) أي: دخان.

فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان فوقفوا ، فركبتُ فرسي حتى جئتُهم ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ من الحبْس عنهم أنْ سيظهرُ أمر رسول الله ﷺ ، فقلتُ له: إن قومك قد جعلوا فيك الدّية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضتُ عليهم الزّاد والمتاع فلم يرزآني[1] ولم يسألاني إلاّ أن قال: «أخْفِ عنّا» فسألته أن يكتب لي كتاب أمْنٍ ، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعةٍ من أديم ، ثم مضى رسول الله ﷺ[2] وهكذا رأى سراقة بأم عينيه أن المسألة ليست عادية ، إنما هناك سرٌّ عظيم هو أن روح هذا الوجود هو المصطفى ﷺ ، فالله تعالى جعل قوائم فرس سراقة تسيخ في الرمال ، ثم في النهاية يعده الرسول صلوات الله عليه بسواري كسرى وتاجه!.

ويدور الزمن دورته ، ويفتح المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه بلاد فارس ، وتُحمل الغنائم ومن بينها سوارا كسرى وتاجه ، وأمام الناس يُعطى سراقة ما كان الرسول ﷺ قد وعده بهما!!

نورٌ فليس له مثل يُرى ولهُ ... من الغمامة أنّى سار تظليلُ
ولا يُرى في الثّرى أثرٌ لأخمصه ... إذا مشى وله في الصخر توحيلُ
فليتَ من وجهه حظّي مُقابلةً ... وليت حظِّيَ من كفّيه تقبيلُ
بيضٌ ميامينُ يُستسقى الغمام بها ... للشمس منها وللأنواء تخجيلُ
وكم دعا ومُحيّا الأرض مكتئبٌ ... ثم انثنىٰ وله بشْرٌ وتهليلُ
واغَيْرتا حين أضحى الغار وهو به ... كمثل قلبيَ معمورٌ وماهولُ
كأنما المصطفى فيه وصاحبه الصّد ... يق ليثانِ قد آواهُما غيلُ
وجلّل الغار نسجُ العنكبوت على ... وهْنٍ فياحبّذا نسجٌ وتجليلُ
عنايةٌ ضلّ كيدُ المشركين بها ... وما مكايدهم إلاّ الأضاليلُ
إذ ينظرون وهم لا يبصرونهما ... كأنّ أبصارهم من زيغها حُولُ
لقد علمتم ولكن صدَّكُم حَسَدٌ ... أنّا بما جاءنا قومٌ مقابيلُ

* * *

---

(١) رزأه ماله: أصاب منه شيئاً فنقصه.

(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٧٦.